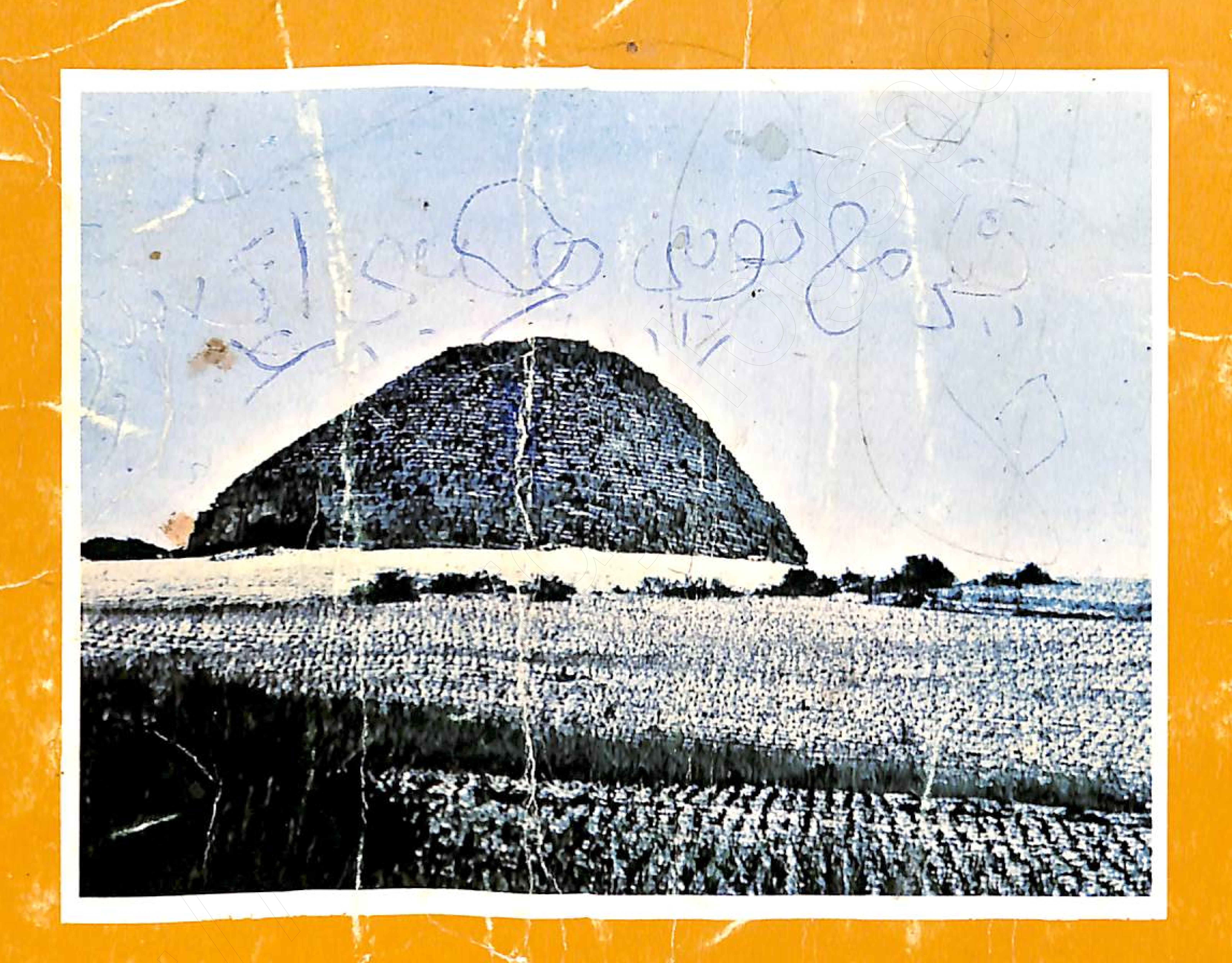
وزارة الإعلام والثقافة

الضريح الملكي الموريطاني



مديرية الفنون الجميلة والآثار والمتاحف

تأليف : منير بوشناقي
وتعريب عبد الحميد حاجيات



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الاعلام والثقافـة



مديرية المتاحف والآثار والمباني التاريخية

الجزائر 1979

التراث الأثري بالجزائر

الضريح الملكي الموريطاني (1)

1 ـ الموقع :

يقع الضريح الملكي الموريطاني بين الجزائر وشرشال . على قمة جبل من جبال الساحل . ويمكن التوجه اليه عن طريق الجزائر الى تيبازة ثم شرشال ، عبر ربى ساحل الجزائر الغربي . حيث تنبت الكروم والخضر . وهذه المرتفعات ، التي تفصل بين شاطيء البحر فى الشمال وسهل متيجة في الجنوب ، تشرف على الساحل مسافة حوالي 50 كلم .

أما الضريح الملكي ، فانه يوجد على رأس احدى مرتفعات الساحل تعلو سطح البحر بمقدار 261 متر . ويبرز لعيون الناظرين من سهل متيجة كله ، أي من البليدة الى حجوط . ومن مرتفعات بوزريعة ، المطلة على الجزائر ، كما يراه الملاحون والصيادون من البحر ، ويهتدون به فى تنقلاتهم بالبحر .

ومن أراد الذهاب الى الضريح ، فما عليه الا أن يغادر الطريق الوطنية بين قريتي بو اسماعيل وتيبازة ، عند ضيعة « الصخرة المصفحة » ، ثم يصعد الى قمة الربوة ، حسب اشارة لافتة المرور .

2 ـ الوصف من الخارج :

واذا ما بلغ الزائر أعلى الربوة ، ارتأى اليه القبر الضخم ، على شكل اسطواني ذي صفائح يعلوه مخروط مدرج . ويزدان فى

---

1 ـ التسمية الجديدة للقبر المدعو بالرومية هي قبر كليوباطرا سيليني زوجة يوبا الثاني .

دائرته ، بستين عمود مرضوم محلاة بتيجان ايونية ؛ تحمل افريزا ، وقد جعل هذا كله على قاعدة مربعة . ضلعها 40ر63 مترا . وهذه القاعدة المبلطة بنيت فوق حجرية تتألف من حصباء صغيرة موصولة بنوع من الملاط مصنوع من تراب الناحية الأحمر . وهذا المبنى موضوع على سلسلة من الدرج المبنية بالصخور . محيط دائرته 50ر185 متر ، ويبلغ قطر دائرته 90ر60 مترا ؛ وعلوه 40ر32 مترا .

أما المخروط فيتألف من 33 درجة ، علو كل منها 58ر0 مترا ، وينتهي أعلاه بسطح .

ويوجد أمام باب المشهد ، آثار لبناء يبلغ طوله 16 مترا ، وعرضه 6 أمتار ، كان يستعمل كمعبد أو ضريح .

واذا شاهدته عن بعد ، خيل اليك أنه خلية نحل عظيمة ، أو وثيمة تبن . ولكن حينما تدنو منه ، تشعر بعظمة هيكله . ثم ان لونه يتغير حسب الفصول ، وحسب ساعات النهار ، فهو تارة يميل الى اصفرار جميل ، وتارة أخرى يتخذ لونا رماديا أو تعلوه زرقة عندما يخيم حوله الضباب .

ويمتاز الضريح بأربعة صفائح من حجر ، على شكل شبه منحرف ، هي أربعة أبواب وهمية مقابلة للجهات الأربع علوها 90ر6 أمتار ويحيط بها اطار ذو نقوش بارزة يتراءى منها رسم شبيه بالصليب ، مما جعل بعض الباحثين يعتقدون أنه مبنى مسيحي ، استنادا على ذلك الرسم الوارد على شكل صليب . وهذا خطأ . وقد قيل ان هذا الرسم الذي أول تأويلا باطلا كان السبب فى تسمية المشهد باسم « قبر الرومية » .

فهذا المبنى لا يمت بأي صلة الى المسيحية ، واذا كان الناس يدعونه بهذا الاسم ، فقد تفسر هذه النسبة بمدلول مفردة

« الرومي » عند العرب ، أي « البيزنطي » أو « الروماني » وكذلك برسم الصليب الذي سبق ذكره .

3 ـ ما كتب عنه :

ولقد تساءل الناس كثيرا ، في شتى الأزمنة ، حول حقيقة هذا الأثر التاريخي ، وهل كان يحتوي على كنوز انتهبت منذ زمان طويل ، أو لا زال يحتفظ بسره .

وقد ذكر المستشرق هـ . برك H. BERQUE هذا الأثر التاريخي ، في كتابه « الجزائر أرض فن وتاريخ » ، فقال : « لا زال قبر الرومية يشكل أسطورة تاريخية ولا زالت الأشباح تحيط به ؛ والأسرار تغمره ، مما جعله منبعا لأنفاس رومنطيقية . ففي ليالي الشتاء يسمع أنين وهمسات في الرواق ، وتهتز الحجارة وتكاد تنطفيء الانوار . فما أروعه منظرا لقصة من قصص والتر سكوت W. SCOTT وما أجملها حكاية ذات تكهنات مثل حكايات والس WELLS أو أقاصيص روسني ROSNY فضريح الرومية لايزال يحمل في طياته مفاجآت عجيبة » .

ولقد أجريت ، منذ زمان طويل ، أبحاث أثرية بدأت بشكل فردي ، ثم أخذت طابعا رسميا . كما صدرت كتب عديدة حول الضريح الملكي وسواء أكانت تآليف خيالية أم أبحاثا علمية ، فانها كلها تحاول كشف القناع عن سره.فقد تحدث عنه الجغرافي العربي البكري في كتاب المسالك والممالك ، كما ألف مارمول MARMOL أحد ضباط جيش شارل الخامس الذي زار شمال افريقية بعد أن أسر بتونس مدة ثماني سنوات ، كتاب « وصف عام لافريقيا » نشره سنة 1573 بغرناطة ، ثم سنة 1579 بمالقة ، فذكر في الفصل 34 من الباب الخامس ، قبر الرومية ، وزعم أن بنت الكونت يوليان هي التي دفنت فيه ، وأن ملك القوط تعدى على

شرف هذه الاميرة البارعة الجمال ، فعزم أبوها على استدعـاء العرب ، ليثأر مما أصاب ابنته .

وقبل رحلة مارمول بسبع وخمسين سنة ، كتب أحد أمراء تنس رسالة الى قائد بقشتالة ، ذكر فيها قبر الرومية .

ثم فى سنة 1738 م ، ضبط موقع الضريح الملكي طوماس شو T. SHAW الذي كان دكتورا فى الالهيات ، وشغل منصبا دينيا مدة 12 سنة بالبعثة الانجليزية فى الجزائر ، وذكر أنه يقع على بعد أربعة فراسخ فى الشمال الشرقي لمدينة القليعة .

وتشير بعض الأساطير العجيبة الى كنوز عظيمة يحكي أنها كانت مدفونة فى هذا الضريح، وأن جنية تدعى هلولة ، كانت تحرسها.

ويزعم بعضهم أن هناك رقى سحرية ، تمكن من الحصول على ثروة كبيرة . كما يحكى أن راعيا لاحظ أن احدى بقراته كانت تغيب كل ليلة، ثم ترجع فى الصباح وتلتحق برفيقاتها. فعزم ذات يوم على اتباعها ، فلما انصرفت فى المساء ، رآها تتوجه نحو الضريح ، وتدخله من باب ثم أغلق الباب فورا بعد دخولها . وفى اليوم التالي تعلق بذنب البقرة ، فتمكن من الدخول معها . ولما خرجت من الضريح فى الصباح خرج بنفس الطريقة ، بعد أن أخذ معه كثيرا من الذهب ، وأصبح أغنى رجل فى الناحية .

4 — التنقيبات الأثرية :

وقد ذاعت هذه الأساطير بين الناس ، الى حد أن الاتراك ، الحاكمين للبلاد ، كانوا على علم بها . وقد أقدم الباشا صالح رايس ، سنة 1555، على تدمير هذا الضريح العتيق ، عساه يجد فى أنقاضه ، الكنوز التي كان يتحدث عنها الخاص والعام . واستعمل المدفع لذلك فلم يصل الى أكثر من الحاق بعض الأضرار بالباب الوهمي بالجهة الشرقية .

وفى القرن الثامن عشر أمر الداي بابا محمد باجراء «حفريات» أخرى قصد البحث عن الكنوز ويحكي أن العمال ، الذين استخدمهم لذلك لم يستطيعوا متابعة عملهم اذ « طردتهم براغيث كبيرة مثل الطيور » . وتذكر مصادر أخرى أن آمال الداي لم تتحقق وأن العمال لم يعودوا الا بقطع الرصاص التي تصل بين الحجارة .

وقد تحدث القصصي بيار بونوا Pierre Benoit عن الضريح الملكي، فى كتابه « لاطلنتيد » ، فقال : « يوجد هرم عجيب من الحجارة ، جنوب شرشال ، غربي وادي ماء الزعفران على قمة ربوة تبرز فى الصباح فوق سحب متيجة الوردية ويسميه الأهالي قبر الرومية فهناك دفنت كليو باطرا سيليني ، بنت أنطونيو وكليو باطرا ، وجدة أتينيا ورغم أن هذا الضريح يقع فى الطريق التي يسلكها الغزاة ، فانه لا زال محتفظا بكنوزه ولم يهتد أحد الى البيت الذي أودعت فيه الجثة فى التابوت الزجاجي . »

أما الحفريات المنظمة الاولى . فقد أجريت تحت اشراف أدريان باربروجير BERBRUGGER من سنة 1865 الى 1866 ، على نفقة الأمبراطور نابوليون الثالث . وكان باربروجير آنذاك « مفتشا عاما للآثار التاريخية والمتاحف الأثرية بالجزائر » . وحاول باربروجير البحث عن المعزبة . فقرر استعمال مسبر شبيه بالذي تحفر به الآبار فى الصحراء . وبعد جهود متواصلة ، دامت أربعة أشهر ، سقط المسبر فجأة الى ما يبلغ نسبة 26ر5 من الأمتار ، وذلك أنه مر بمكان فارغ

وحينئذ حفر نفق تحت الباب الوهمي بالجهة الشرقية ، للوصول الى ذلك المكان الفارغ ، فاكتشف ، لأول مرة فى العصر الحديث ، دهليز واسع ، يؤدي من جهة الى الباب الحقيقي الواقع تحت

الباب الوهمي بالجهة الشرقية ، ومن جهة أخرى الى غرفتين متوسطتين قد كسر باباهما ، ولا يوجد فيهما شيء .

وثبت أن باب الضريح الذي بحث عنه الباحثون منذ زمن طويل، يقع فى أسفل المشهد ، تحت الباب الوهمي بالجهة الشرقية . وهذا الباب وطيء وضيق ، وعلوه 10ر1 من الأمتار . وكانت تسده صخرتان مربعتان ، مدماكهما ، فى مستوى علو مداميك الصخور المجاورة ، فلم يكن فى الامكان تمييز هاتين الصخرتين عما حولهما الا بكيفية ترتيب المواصل .

5 ـ وصف داخل الضريح :

ويجد الزائر نفسه عندما يجتاز باب الضريح أمام باب ـ بلاطة صخرية ـ ينفذ داخل فرضة واقعة من أعلى وفى الجوانب، فكان الباب ـ البلاطة ـ يرفع أو ينزل على شكل مسلفة ، بواسطة عتلة . وقد وجده باربروجير مكسرا مثل سائر الأبواب الأخرى .

أما الدهليز فهو وطيء جدا ، بحيث يضطر الماشي فيه الى الانحناء ويقع تحت مستوى الارض ، ثم انه مغلق بمسلفة ثانية ، وفى مؤخره توجد معزبة طولها 33ر5 م وعرضها 25ر2 م وعلوها 20ر3 م . وقد نقش فى الحائط الأيمن ، على الحجر بأعلى باب دهليز ثان ، صورة أسد ولبؤة . وقد نسب ذلك الموضع الى ذلك النقش فسمي « بهو الأسود » . وهذا النقش ، الذي يصعب تأويله هو الزخرف الوحيد الذي يوجد فى الضريح . ولعل القدماء كانوا يعهدون الى هذه الحيوانات بمهمة حراسة الضريح وتكثر هذه الصور فى آثار الشرق الأدنى القديمة .

ويلي الدهليز الثاني ، الرواق المستدير ، الذي يتوصل اليه بمرقى ذي سبع درجات ، ويبلغ طول هذا الرواق المقبب ، الذي يتلو المرقى ، 141 متر . وعرضه مترين ، وعلوه 2ر40 من الامتار . ولعله كان يضاء بمصابيح كانت توضع فى 51 مشكاة منحوتة فى الحائط ، وتبعد كل واحدة عن الاخرى بمسافة 3 أمتار .

وقد بنى هذا الرواق على السطح المربع الذي يحمل القبر كله ، بينما يقع بهو الأسود فى طبقة سفلى . أما الرواق ، فانه ذو شكل مستدير ، وهو يدور ، من الجهة اليمنى نحو اليسرى ، فيرسم دائرة تكاد تكون تامة ، ويبتديء من الباب الشرقي ، ثم يمر بالأبواب الوهمية الشمالية والغربية والجنوبية . وبعد هذا المكان ، يتجه الرواق نحو مركز البناء فيصل الى باب موجه نحو الشرق ومغلق بمسلفة تؤدي الى معزبة صغيرة طولها 4ر04 أمتار وعرضها 1ر58 من الأمتار وعلوها 3ر27 من الأمتار .

ثم يمر الزائر بدهليز وطيء ، وبباب أخير ، ذي مسلفة ، فيصل الى معزبة أخرى ، طولها 4ر04 م وعرضها 3ر06 م وعلوها 3ر43 م . وهاتان المعزبتان على شكل مقبب ، وهما موجهتان من الشمال الى الجنوب . أما المعزبة الثانية المسماة خطأ بالغرفة المركزية ، فهي مزدانة بثلاث كوات نحتت كل واحدة منها فى أحد الجدران الواقعة شمالا وجنوبا وغربا .

نحن الآن فى قلب البناء ، ولم يعثر الباحثون على شيء من الكنوز التي طالما تحدث عنها الناس ، وقد يشعر الزائر بشيء من الاسف حينما يعتبر ذلك البناء الهائل الذي لا يقل حجمه عن 80ر000 متر مكعب ، وحينما يفكر بما شاهده فيه من دهليز ورواق ومعازب . ولقد وجد باربرجير جميع الأبواب محطمة ، ولعل ذلك يرجع الى العهد القديم .

6 ـ مشكل الغرفة الخفية :

وربما يجد الزائر نفسه فى حيرة ، مما جعل كثيرا من الناس يطرحون الأسئلة حول الضريح ، ويقترحون الأجوبة عليها .

ففيما يخص الباب المستور ، قد يتساءل الزائر : هل كان ذلك مخافة تعدي اللصوص ، أم امتثالا لاعتقادات وتقاليد قديمة ، والغالب على الظن أن الرواق خصص لاقامة الحفلات الدينية عند دفن الأموات ، مثلما كان يجري به العمل عند المصريين فى الأهرام .

هذا وقد قام السيد كريسطوفل CHRISTOFLE المهندس المعماري السابق للآثار التاريخية ، قبل الاستقلال ، بأعمال ترميم هامة فى واجهة الضريح التاريخية ، فكان لهذه الاصلاحات أجمل الأثر، وبالاضافة الى أعمال الترميم والاصلاح فان السيد كريسطوفل تابع الأبحاث الأثرية داخل المبنى . وقد أودع بعض نتائج أبحاثه فى تقاريره ، وفى الدراسة التي كتبها عن الضريح الملكي .

ومن جهة أخرى ، فقد طرحت مشاكل أخرى عديدة حول الغرفة المركزية ، وهل هي الغرفة التي وضع فيها رفاة الدفين . وقد أبديت اعتراضات كثيرة لهذا الاعتبار ، منها ضيق المكان بالنسبة لضخامة المبنى ، وفقدان كل الهدايا الجنائزية التي تودع عادة فى مثل هذه الأمكنة من أضرحة وغيرها ، وأن الأبواب المفضية الى الغرفة تؤدي الى ممر ضيق جدا .

واذا فرضنا أن المبنى كان يحتوي على رماد الجثث المحرقة ، فان ذلك الرماد قد يكون موضوعا فى الكوات الثلاث المنحوتة فى الجدران ، كما يمكن أن تكون هذه الكوات لأجل المصابيح أو القناديـــل .

وهناك سؤال طرح مرارا عديدة : هل يحتوي القبر ، مثلمـــا يوجد فى الآثار المصرية ، على بيت خفي لا يصل اليه أحد ، بعد

عملية الدفن ، مع وجود غرفة أخرى بجانبه لاقامة الطقوس الموجهة للأموات كان يذهب الناس اليها فى ظروف خاصة ؟ ان هذا السؤال مطروح منذ عرف الناس داخل المبنى .

ولا زال الكثير يصدقون هذه الافتراضات والأساطير ، ويأملون أن يكون هذا القبر حاملا فى طياته للمفاجآت العجيبة .

ولقد كان هذا المبنى عرضة لمحاولات اللصوص ، منذ زمن طويل ، ولاشك أن المحاولات الأولى ترجع الى العهد القديم . ولم يتأخر بعضهم عن اجراء « حفريات » موجهة من الرواق الداخلي ، نحو داخل المبنى ، بغية العثور على « الغرفة الخفية » المزعومة ، فهناك حفر ، على شكل غيران المناجم ، كان الهدف من حفرها البحث عن الكنوز التي تتحدث عنها الأساطير . فهذه احدى تلك « الحفريات » يبلغ طولها 7 أمتار ، تنطلق من بهو الأسود ، وتتوجه نحو وسط المبنى . وهذه أخرى ، فى الجهة الغربية ، تبدأ من الرواق ، وتنفصل عنه على شكل زاوية قائمة، ويبلغ طولها 16 مترا .

ولعل هذه « الحفريات » التي لا زالت آثارها ماثلة للعيان الى عهدنا ، كانت خطيرة جدا لأن عملية الحفر كانت تقع عبر صخور عظيمة ، للوصول الى مركز المبنى ، ولا يجد الباحث الأثري فيها، من الفوائد ، الا استبانة الهيكل الداخلى للقبر : فالمبنى المستدير يتألف من صخور كبيرة مربعة ، ومن مواد صغيرة ، بخلاف مبنى المدغاسن MEDRACEN فان هذا الأخير مشحون بمواد مختلفة الحجم ، اتخذت من شحف الحجارة أو من موارد خارجية .

وقد ترك أولئك الباحثون عن الكنوز أشياء توصل الى تاريخها بدقة : وهي نقود ترجع الى القرنين الرابع والخامس للميلاد ، وقطع خزفية من زمان متأخر .

وترجع المحاولات الأولى للدخول الى القبر الى زمان بعيد . وعلى كل ، فانها تقع قبل الفتح العربي ، وقد تـراكم التراب حول الباب الصغير الواقع فى مستوى أسفل من سطح الأرض ، وسرعان ما غطاه وحجبه عن أعين الناس .

7 ـ متى بنى قبر الرومية ومن امر ببنائه ؟

ومن الأسئلة التي يطرحها هذا المبنى ، سؤال تاريخي هام : متى كان تاريخ بنائه ، ومن أمر بتشييده ؟ والقبر لا يحمل أي نقش يثبت تاريخه ولا يمكن الاعتماد على العـلامات المنقوشة على الصخور لايجاد دلالة تاريخية ، وذلك أن تلك العلامات ترمز الى معامل الحجارة المنحوتة فقط ، اذ كان لكل ناحت حجارة علامة خاصة به . وبعض تلك العلامات يقرب رسمها من الحروف اللاتينية أو الليبية أو اليونانية . الا أنها لا تمت الى الحروف الهجائية بأي صلة .

والنص القديم ، الأول والوحيد ، الذي وصل الينا ، عن هذا المبنى،لمؤلف لاتيني يدعى بمبونيوس ميلا POMPONIUS وكتابه VARONAUGUSTE يرجـع تأليفـه الى حوالي سنة 40 بعـد الميلاد . أي الى عهد استيلاء الرومان على مملكة موريطانيا (1) ، وتحويلها الى ولاية رومانية . يقول بمبونيوس ميلا فى الفصل السادس (ورقة 38) من كتابه : « يول (شرشال) على شاطىء البحر ، مدينة كانت قديما مجهولة . وأصبحت الآن مشهورة ، بما كانت عاصمة الملك يوبا ، وباسم قيصرية الذي تدعى به ، ويليها ، من هنا ، بلدتا كرطينا (تنس) وأرسناريا وقصر كويزا ،

1 ـ موريطانيا فى العصر القديم ، كلمة يقصد بها المغرب الاوسط والمغرب الاقصى .

ثم خليج لاتوروس ، ونهر سردابال ، ومن هنا الضريح العام للأسرة الملكية .. ثم ايكوزيوم » .

ويجدر بالملاحظة أن هذا المؤلف يكتفي ، ف وصفه لساحل شمال أفريقيا ، بذكر ما ورد فى كتاب أقدم ، ينسبه سطيفان ڤزال الى فارون Varon المتوفى سنة 27 ق.م. ، مع زيادات قليلة . والنظرية التاريخية التي يميل اليها أكثر الناس ، هي التي تنسب بناء الضريح الملكي الى الملك يوبا الثاني وزوجته كليوباطرا سيليني ، بنت كيلوباطرا الشهيرة (ملكة مصر) وأنطونيو .

واتفق المؤرخون على اعتبار يوبا الثاني ملكا مثقفا ذا تذوق للفنون . وقد جلب الى عاصمته شرشال تحفا فنية اقتناها من بلاد اليونان . وكان للامبراطور الروماني أغسطس AUGUSTE الفضل فى تملكه بموريطانيا ، مدة طويلة من سنة 25 ق . م . الى سنة 23 ب . م .

فاذا كان القول الوارد حول « الضريح العام للأسرة الملكية » يرجع الى فارون ، فلا يمكن الأخذ بالنظرية التي تنسب بناء القبر الى يوبا الثاني . أما اذا لم يثبت هذا القول لفارون ، فالراجح أن يكون بناء القبر فى عهد يوبا الثاني .

وقد اختلف المؤرخون فى ذلك منذ بداية القرن العشرين . فمنهم من يفضل الحاق بناء القبر بالملك يوبا الثاني . ومنهم من يرجع بناءه الى قبل هذا الملك بكثير . وشذ عن الجميع المؤرخ المشهور رومانيلي ROMANELLI الذي يرى أن القبر بنى ف عهد متأخر أي فى القرن الخامس أو السادس للميلاد، وهو يعتقد أنه شيد على منوال الضريح المستدير ، الذي بناه الامبراطور هادريان فى روما .

ويظهر من كل ما سبق ، أن المشكل التاريخي المطروح حول قبر الرومية ، معقد جدا .

8 ـ المعطيات الفنية والمعمارية :

ولا يمكن التوصل الى بعض المعلومات ، واتخاذ موقف فى توقيت نسبي للمشهد ، الا عن طريق العناصر الهندسية :

أ ـ شكلـه :

أما عن كونه قبرا ، فهذا يستنتج من النص المذكور سابقا ، ومن توجيه المبنى وهيكله العام ، الذي يذكرنا بالقبور الافريقية العديدة . وهذه القبور التي تسمى بازينا Basinas تتألف من أكداس حجارة توضع لأجل حفظ رمس ، وفى وسطها معزبة لا يتعدى حجمها حجم تابوت .

وهذه المباني منتشرة جدا فى شمال افريقيا ، واذا كان قد طرأ بعض التغيير على شكلها الخارجي ، فان هيكلها لايزال على حاله : آكداس من حجارة توضع بنظام معين ، فوق الدفين . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ضريح المدغاسن ، الذي يوجد بمنطقة الأوراس قريبا من مدينة باتنة وذكرنا أنه على منوال الضريح الملكي ، وان كان يظهر مختلفا عنه من حيث الشكل والزخرف الخارجي والهيكل الداخلي .

وقد اكتشف ضريح أكثر تعقدا منذ سنوات قليلة فى مصب نهر تافنة ، على بعد بضع كيلومترات من سيقا ، العاصمة القديمة للملك البربري سيفاكس Syphax وهذا أيضا على شكل مخروط مثل المدغاسن والضريح الملكي ، ويقع كذلك على قمة ربوة .

وقد يكون المدغاسن أقـدم من الضريح الملكي ، وتاريخ تشييده أشد تعلقا بالأسطورة فقد روى أنه من عمل أحـد الملوك .

واستمرت عادة بناء المشاهد من هذا النوع عبر العصر القديم كله ، فبنيت فى القرنين الخامس والسادس للميلاد ، بناحية فرندة (ولاية تيارت) ، الأضرحة التي تدعى باسم الجدار ، وهي مبان مشيدة على سطح مربع ، وذات مشرف على شكل هرمي ، وتحتوي أكبرها على دهاليز وغرف داخلية ، متصلة بعضها ببعض . وهذه المباني التي تعد بالعشرات ، تقع فى رؤوس المرتفعات ، وتنسب الى أمراء من البربر ، ربما كانوا على الديانة المسيحية ، وكانت امارتهم تمتد نحو المناطق الغربية .

ب ـ التأثيرات الأجنبية :

فتشييد هذا النوع من الأضرحة يرجع الى أصول هندسية خاصة بشمال افريقيا . الا أننا نلاحظ زيادة عـلى ذلك فى الضريح الملكي ، نوعا من التفنن فى الهندسة والنقوش والزخرف يشهد على تأثيرات خارجية . وقد قارن السيد سلامة شكل زخرف الأبواب الوهمية بشكل زخرف نصب فينيقي بدلس . وهذا يبعثنا الى ضرورة الرجوع الى الآثار الفينيقية ، لتفهم بعض المظاهر الزخرفية للمبنى .

أما تيجان الأعمدة فى قبر الضريح ، فهي تمت الى تاج العمود الايوني الأغريقي (القرن الرابع ق . م) وتحتوي على حلزونتين متصلتين بواسطة قناة ، تحتها عقد ورود . ويرى ستيفان قزال ان تيجان الأعمدة الايونية فى الضريح الملكي ، ذات طابع قديم ، فالقناة التي تصل بين الحلزونتين مستديرة من أسفل ، عوض أن تكون مستقيمة مثل تيجان الأعمدة اليونانية السابقة للحروب الميدية. وكانت الهندسة الكلاسيكية قد تركت الخطوط المستديرة ولم يتماد فى صنع تيجان الأعمدة الايونية الا بعض المعامل . وقد بقي بعضها بقرطاجة الى تخريبها فى القرن الثاني ق . م

ويوجد حنية خفيفة فوق الأفاريز التي تعلو الأبواب الوهمية والأعمدة ، بينما فوق أفاريز المدغاسن حنية نافرة ، جعله يحمل اسم « العنق المصري » .

أما قواعد الأعمـدة ، التي تحتوي عـلى قولبين طوقيين مستديرين ، فتسمى « قواعد أتيكية » (1) وهي كثـيرة فى رسوم الأنصاب الفينيقية للقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وهكذا، فان الزخرف الخارجي ينفي انتساب القبر الى يوبا الثاني. وقد اتخذ هذا الموقف سطيفان قزال « مع شيء من الأسف » كما قال ، ووجه نظره الى زمن أبعد ، للبحث عن ملك بربري يمكن أن ينسب اليه أثر تاريخي ضخم وجميل ، فتساءل هل يكون ذلك الملك بوكوس Bochus الذي عاصر يوليوس قيصر وكانت عاصمته يول ، أي قيصرية فيما بعد ، أو بوكوس القديم ، الذي تملك حوالي 105 ق . م .

فالمشكل ، كما يلاحظ القاريء ، لازال مطروحا : فى عهد أي دولة بربرية أسس هذا المشهد ؟

9 ـ المعطيات الهندسية :

انه لسؤال محرج اذ ليس لدينا من المعلومات ما يساعدنا على الاجابة عليه ، وليس لدينا من وسائل البحث الا المعطيات التي نستنتجها من الطرق المتبعة فى البناء .

فماذا عسانا نعلم ، من هذا المبنى عن الهندسة الافريقية حوالي القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ؟

لقد جلب الصناع ، الذين عملوا فى تشييده ، والحجارة من المحاجر الرملية الموجودة فى الساحل المجاور . وليست تلك

---

1 ـ نسبة الى أتيكا وهي احدى مناطق اليونان القديمة .

الحجارة من النوع الجيد ، ومع ذلك ، فانها نحتت نحتا فنيا دقيقا . وكان مهندس الآثار التاريخية ، المشار اليه سابقا ، يتعجب أمام هذا العمل المتقن ، وذلك أن الحجارة كانت تشد شدا وثيقا بواسطة قطع من رصاص . ويمكن استبانة دقة الصنع بالنظر الى مواصل الصخور ، والشكل العام الذي يظهر من ترتيبها . ثم ان ضخامة المبنى تقتضي وجود يد عاملة كثيرة العدد وماهرة ، ولم يكن ممكنا جلبها من مناطق بعيدة . وبالقرب من الضريح بلدتان مشهورتان هما تيبازة وايول (شرشال) . ولاشك أن تيبازة كانت فى القرنين الثاني والأول مدينة هامة . فكان فى استطاعة أغنى وأوجه سكانها أن يفكروا فى تشييد مثل هذا الضريح . وقد أثبت الباحثون حيوية تيبازة ، وبالخصوص تأثير الحضارة الفينيقية بها قبل الاحتلال الروماني ، فقد اكتشفت قبور فينيقية منذ آخر الحرب العالمية الثانية ، كما أفادت الأبحاث معلومات عن المجتمع الافريقي فى العهد الفينيقي .

وهذا القبر أثر افريقي اعتبره سطيفان ڨزال « بناء من الطراز الأهلي مغطى بقميص يوناني » .

والمقصود من هذهالعبارات أن الأفارقة همالذين بنوا الضريح الملكي ، كما بنوا الأضرحة التي سميت « بازينا » ، مع اضافة عناصر زخرفية مستوردة من العالم اليوناني ، اذن فان أولئك الأفارقة كانوا على علم بالفن الزخرفي المنتشر آنذاك فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وهذا العنصر الفني على جانب كبير من الأهمية لأنه يدل على وجود مجتمع افريقي متطور متفتح للتأثيرات الخارجية .

ففي هذه الآثار ، وكذلك فى المدغاسين وضريح الخروب ، المسمى قبر ماسنيسا ، أجاد المهندسون المعماريون والصناع ،

الذين عاشوا أيام الممالك المستقلة ، فى العصر القديم ، فى خلق انسجام بين الأساليب المحلية والعناصر الخارجية .

فكان قبر الضريح الملكي ، الذي بنى قبل الاحتلال الروماني، دليلا قاطعا لوجود مجتمع افريقي متطور اقتصاديا ، قادر ، بفضل اتصاله بالحضارة الفينيقية ، على ابداع فن أصيل .

ويطرح المدغاسن فى ناحية قسنطينة ، نفس المشكل . فصورته تذكرنا بصورة الضريح الملكي ، الا أنه أشد اكتنازا وأصغر منه ، فعلوه لا يبلغ الا 18ر50 مترا وقطر دائرته 12 مترا .

والذي يهمنا هو تشابه الأثرين فى تصميمهما ، اذ هما معا على شكل مخروط يعلو بناء أسطوانيا مزدانا بأعمدة ، ولا اختلاف بينهما الا فيما يرجع الى الترتيب الداخلي .

10 ــ الخاتمة :

وبعد ، فقد اتضح الآن لنا بعض النقاط . فلا شك أن الضريح الملكي الموريطاني ضريح أسرة ملكية نوميدية أو موريطانية ، أنفقت أموالا طائلة فى سبيل دفن أعضائها ، فى اطار لا يختلف عن التقاليد المعهودة آنذاك .

ثم ان جميع الأبحاث الحديثة التي أجريت داخل القبر تنفي وجود غرفة سرية فيه .

الا أن أبرز جانب يتجلى للزائر هو اتسام هذا الأثر الافريقي، الذي لا يخلو جماله عن البساطة والروعة ، بطابع الوجود . وهذا الطابع يجعل من الضريح الملكي ، بما يحمله فى أحضانه من جلال وأسرار ، أثرا من أجل الآثار التي تركها الانسان فى شمال افريقيا .

تعريب
عبد الحميد حاجيات

المصـــادر

BIBLIOGRAPHIE SOMMAIRE

1 – بمبونيـوس — Pomponius Mela. — De Situ Orbis, chap. IV.

2 – ا . جوداس — A. Judas. — Notes sur l'origine du nom du Kber er-Roumia dit Tombeau de la Chrétienne.

3 – أ. باربروجير — A. Berbrugger. — Le Tombeau de la Chrétienne d'après Shaw et Bruce, dans Revue Africaine, t. X, 1866, p. 441-450.

4 – أ. باربروجير — A. Berbrugger. — Rapport des travaux exécutés au Tombeau de la Chrétienne, dans Revue Africaine, t. XI, 1867, p. 39-48.

5 – أ. باربروجير — A. Berbrugger. — Le Tombeau de la Chrétienne, mausolée des rois mauritaniens de la dernière dynastie, Blida, 1867.

6 – دي لورير — De Laurière. — Deux mausolée africains, dans Bulletin Monumental, 5, série, 1876, p. 305-346.

7 – ا . كيس — A. Caisse. — Le Tombeau de Juba II dit Tombeau de la Chrétienne, Blida, 1892.

8 – سطيفان قزال — St. Gsell. — Le Tombeau de la Chrétienne, dans C.R. du XIVe Congrès de l'A.F.A.S., Carthage, 1896, t. II, p. 767-778.

9 – سطيفان قزال — St. Gsell. — Promenades archéologiques aux environs d'Alger, Alger, 1896, p. 157-182.

10 – سطيفـــان قزال — St. Gsell. — Les Monuments antiques de l'Algérie, Paris, 1901, t. I, p. 69-74.

11 – سطيفـــان قزال — St. Gsell. — Histoire ancienne de l'Afrique du Nord t. VI, p. 266-273.

12 – سطيفـــان قزال — St. Gsell. — Marques du Tombeau de la Chrétienne dans Bulletin archéologique du Comité, 1899, p. 441-443.

13 – ا . بالو — A. Ballu. — Rapports sur les travaux du Service des Monuments Historiques de l'Algérie, 1918-1923 (travaux dirigés par M. Christofle).

14 – هـ . بامار — H. Pamar. — Etudes sur le Médracen (Tombeau de Syphax), et le Kber-er-Roumia (Tombeau de la Chrétienne), dans Revue Africaine, t. LXI, 1921, p. 279-294.

15 – ج . والتزار — G. Weltzer. — Zwei worrëlische grabbatan in Nord-Africa, dans M.H. des Arch. Inst., R.A., t. XLII, 1927, p. 84.

16 – م.كريسطوفل — M. Christofle. — Le Tombeau de la Chrétienne, Paris, 1951.

17 – ب.رومانيلي — P. Romanelli. — La tomba della christiana e il suo mistero, dans archologia classica, t. IV, 2, p. 274.

18 – ف.رينيوس — F. Reymiers. — Métrologie du Tombeau de la Chrétienne, Cherbourg, 1953.

19 – ب . سلامة — P. Salama. — Tombeau Royal Mauritanien, dans Revue du Ministère du Tourisme, n° 4, 1967.

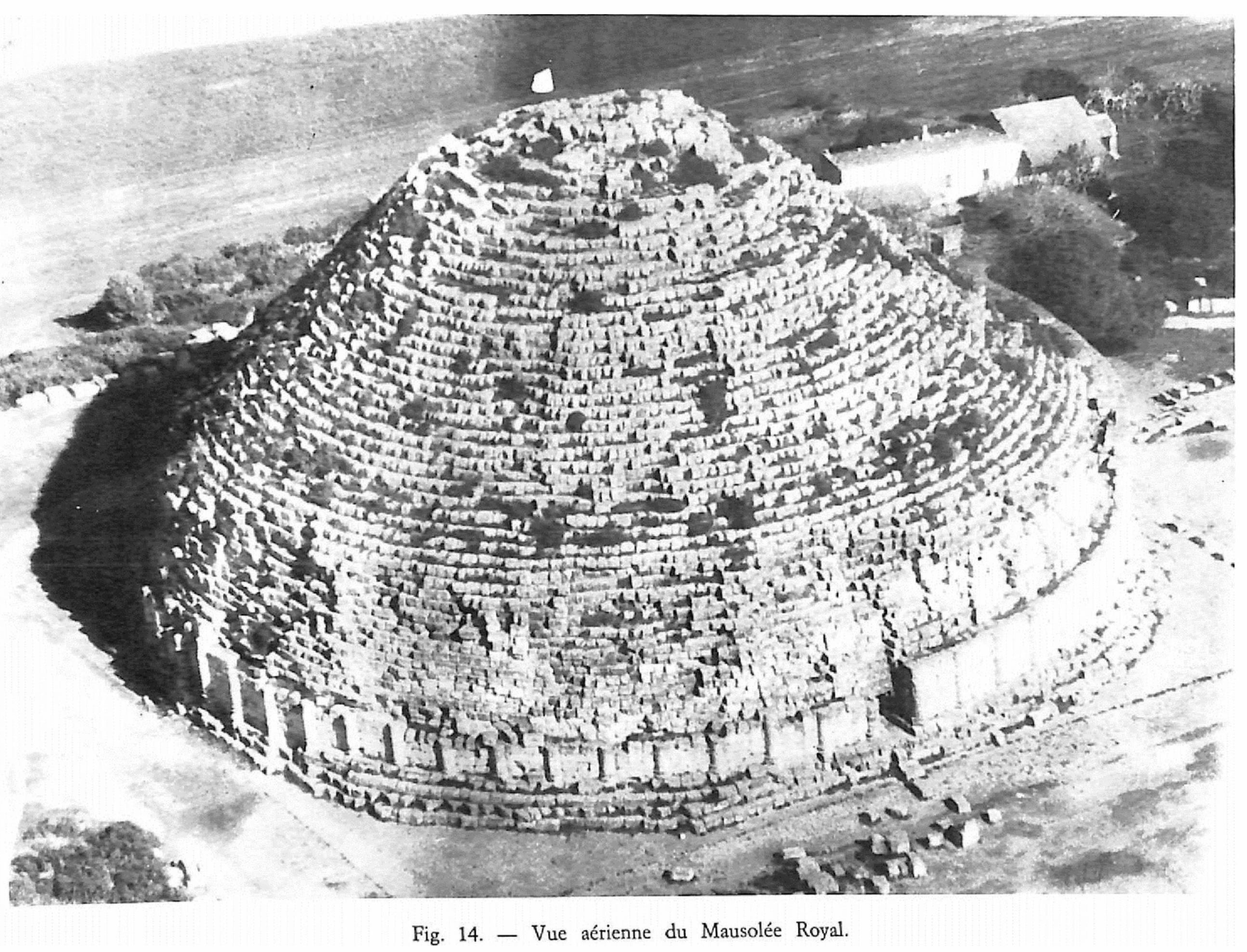


Fig. 14. — Vue aérienne du Mausolée Royal.

sur un cylindre décoré par des colonnes. Seul l'agencement intérieur diffère. Au Médracen il n'y a qu'une seule galerie et un seul hypogée.

Il y a une grande analogie de forme et de destination entre ces deux monuments (fig. 14).

Certains point sont maintenant éclaircis.

10. - *Conclusion.*

Le Mausolée Royal de Maurétanie est certainement le mausolée d'une famille royale numide ou maure qui s'est fait enterrer richement mais dans un cadre qui ne rompait pas avec la tradition. Toutes les récentes recherches meneés à l'intérieur du Tombeau semblent bien répondre par la négative à l'hypothèse d'une chambre secrète.

Mais le caractère le plus frappant reste la présence de ce monument africain attachant par sa beauté sobre et grandiose, présence à la fois majestueuse et mystérieuse qui fait du Tombeau un des plus beaux vestiges du passé humain de l'Afrique du Nord.

MOUNIR BOUCHENAKI

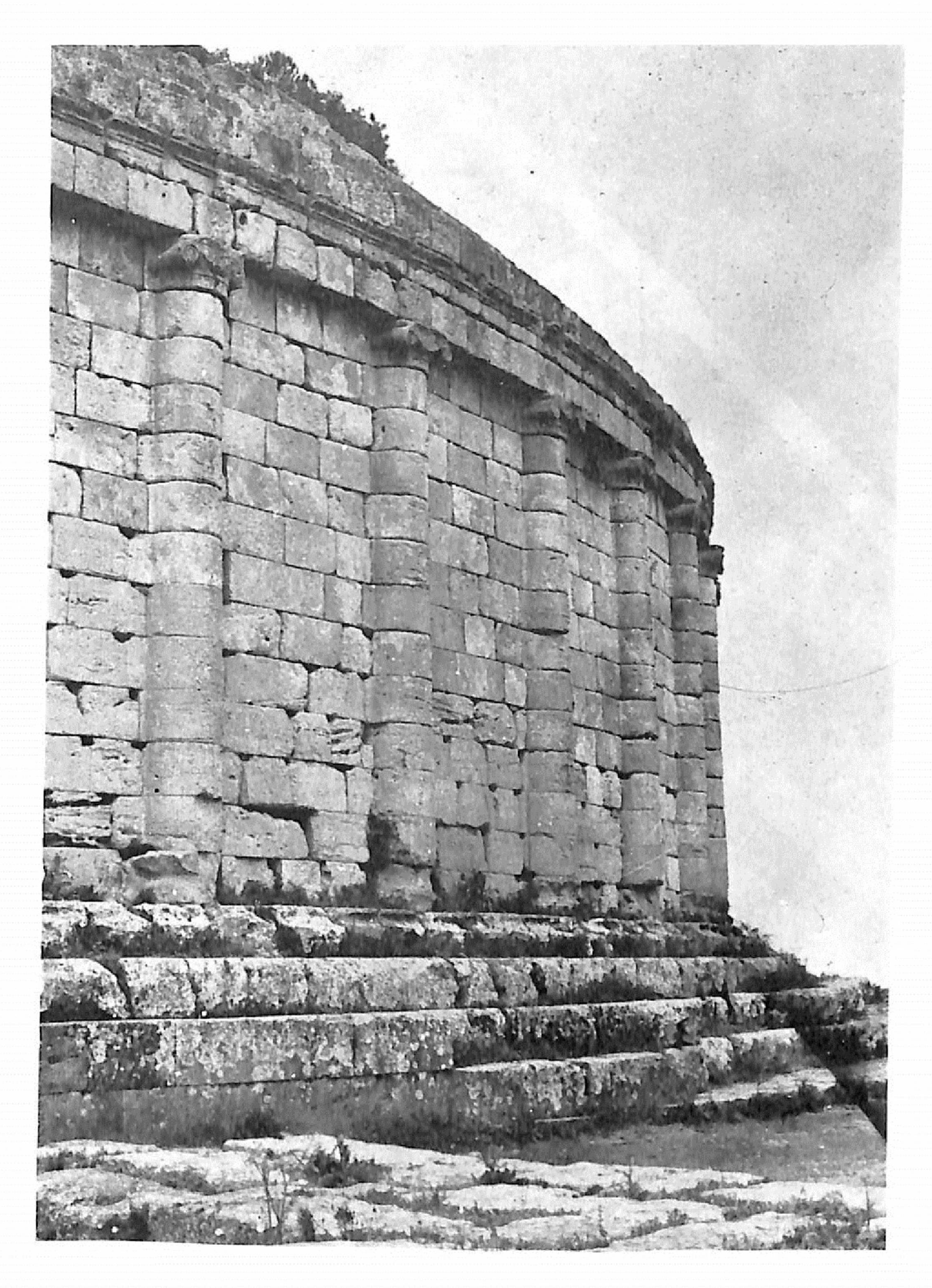


Fig. 13. — Agencement des blocs du parement extérieur.


Fig. 12. — Courbure du couloir avant l'arrivée au caveau central.

Les artisans qui ont travaillé à la construction de ce monument ont emprunté les pierres aux carrières de grès provenant de la côte proche. Ces pierres gréseuses ne sont pas de très bonne qualité et pourtant elles ont été finement et artistiquement taillées. L'architecte des Monuments Historiques que nous avons cité plus haut s'émerveillait devant la perfection du travail : par un système de queues d'aronde en plomb les pierres étaient solidement liées les unes aux autres. L'on peut bien se rendre compte de cette finesse du travail en regardant les joints entre les différents blocs et la ligne générale qui s'en dégage (fig. 12 et 13). L'énormité même du Tombeau suppose la présence d'une main d'œuvre considérable et habile. Celle-ci ne pouvait pas venir de très loin. Tout près se trouvent les cités bien connues de Tipasa et d'Iol (Caesarea - Cherchell). Au IIe ou au 1er siècle avant J.C. Tipasa était une cité. Certainement les plus riches et les plus hauts placés parmi les habitants pouvaient envisager la construction d'un tel tombeau. La vitalité de Tipasa avant l'arrivée des Romains et surtout l'influence de la civilisation punique ne sont plus à démontrer. Des tombeaux de type punique ont été découverts depuis la fin de la dernière guerre mondiale et de plus en plus, les recherches entreprises ont apporté des précisions sur la société africaine à l'époque punique.

Or, ce tombeau est un monument africain. St Gsell a bien dit à son sujet « construction de type indigène, il est couvert d'une chemise grecque ».

Cela sous-entend qu'il fut élevé par les Africains, comme pour les sépultures appelées basinas, avec en plus des éléments décoratifs appartenant au monde hellénistique. Ces Africains connaissaient donc l'art décoratif du bassin méditerranéen. Cet élément artistique est très important car il implique l'existence d'une société africaine évoluée et surtout ouverte aux influences extérieures. De même qu'au Médracen ou au Tombeau du Kroubs, tombeau dit de Massinissa, architectes et artisans vivant à l'époque des royaumes indépendants de l'Afrique antique, ont su marier les traditions locales et les apports externes. Construit bien avant la colonisation romaine, le tombeau de la Chrétienne présente la preuve de l'existence d'une société africaine évoluée du point de vue économique et qui, grâce au contact de la civilisation punique, a pu faire une création artistique originale.

Le Médracen pose, dans le Sud Constantinois, le même problème que le Mausolée Royal. Sa silhouette évoque irrésistiblement celle du Tombeau, mais il est plus tassé et surtout plus réduit.

Il n'a que 18,50 m de haut et son diamètre est de 58,86 m (fig. 10).

C'est ce qui est capital : les deux monuments ont été conçus sur le même plan. Ce sont l'un et l'autre un cône de gradins posé



Fig. 11. — Chapitaux de style ionique au-dessus des demi-colonnes engagées.

La construction de ce type de sépulture est donc de tradition purement Nord-Africaine. Mais on remarque en plus, dans le Mausolée Royal une recherche architecturale, ornementale et décorative. qui témoignent d'influences extérieures au Maghreb. M.P. Salama a comparé le motif décoratif des fausses portes à celui que l'on peut voire sur une stèle punique de Dellys. C'est donc vers le monde punique qu'il faut regarder pour comprendre certains aspects décoratifs du monument.

Les chapitaux du Mausolée Royal de Maurétanie, variante du chapiteau ionique grec du IV siècle, possèdent deux volutes reliées par un canal au-dessous duquel se trouve un collier de rosaces. Selon St. Gsell, les chapitaux ioniques du Tombeau ont un aspect archaïque (fig. 11). Le canal qui relie les deux volutes, au lieu d'être horizontal, s'incurve fortement vers le bas, comme sur des chapiteaux grecs antérieurs aux guerres médiques. L'architecture classique avait renoncé à cette moulure courbe, seuls quelques ateliers routiniers continuèrent à fabriquer des chapiteaux ioniques. Ainsi à Carthage, il en subsiste jusqu'à la destruction de la ville, au IIe siècle avant J.C.

Une légère moulure est représentée sur les corniches qui coiffent les fausses portes et les colonnes, à la différence de la moulure saillante formée par la corniche du Médracen à laquelle on donne le nom de « gorge égyptienne ».

Les bases de colonnes qui possédent deux tores sont appelées « bases attiques ». Elles sont fréquentes dans les représentations des stèles puniques du III et IIe siècle avant J.C. En somme, la décoration extérieure a fait écarter l'appartenance du Tombeau à Juba II. St. Gsell l'a fait « non sans regret » et il a cherché à remonter plus haut dans le temps, pour l'attribuer à quelque roi Maure qui voulut un grand et beau monument : peut-être Bocchus, contemporain de Jules César dont la capitale fut elle aussi Iol, la future Césarée, peut-être Bocchus l'ancien qui régna autour de 105 avant J.C. ?

Comme on peut le constater le problème reste posé : à quelle dynastie berbère le tombeau fut-il élevé ?

A défaut de pouvoir répondre à cette question précise, qui est l'une des incertitudes qui demeurent sur ce monument, il convient de reconnaître humblement son ignorance, et de chercher à préciser toutes les données que nous fournissent les techniques de construction.

9. - *Les techniques de construction.*

Que nous apprend le monument sur l'architecture africaine aux alentours du II et Ier siècle avant J.C. ?



Fig. 10. — Le Médracen, Mausolée Numide du III^{e} siècle avant l'ère chrétienne.

M.P. ROMANELLI a profité de cet article pour renouveler la discussion et le savant italien s'en sert pour confirmer une datation tardive du mausolée.

Comme on peut s'en rendre compte le problème historique posé par ce tombeau est complexe.

8. - *Les données architecturales et artistiques.*

Seuls les éléments stylistiques peuvent donner quelques renseignements et permettent ainsi d'avancer une datation relative.

Qu'il s'agisse bien d'un tombeau, on peut le déduire du texte ancien cité plus haut, mais aussi de l'orientation du monument, et de sa structure générale qui rapelle les innombrables tombes africaines. Composées d'un amas de pierres, préservant une tombe, avec au centre un caveau de la dimension tout au plus d'un cercueil, on les appelle des basinas.

Ces monuments, dont Maurice Reygasse a étudié le caractère dans son ouvrage (Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord, Paris, 1950) et dont M.G. Camps a donné une étude magistrale (Aux origines de la Berberie : monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, 1961), sont extrêmement répandus à travers l'Afrique du Nord. Si leur aspect extérieur a varié, leur structure est toujours la même, amas de pierres plus ou moins bien ordonnées, recouvrant le corps du défunt. Nous avons dit plus haut que non loin de l'Aurès, près de Batna, le Médracen était un monument du même type que le Mausolée Royal, même si ses dimensions, sa décoration extérieure et sa structure intérieure le montrent assez différent (fig. 10).

Un mausolée plus complexe encore, a été découvert il y a peu d'années, à l'embouchure de la Tafna, à quelques kilomètres de Siga, l'ancienne capitale massyle du roi Syphax. Ce monument est également un tumulus de même contexture que le Médracen ou le Kbour, situé au sommet d'une colline.

Le Médracen paraît plus ancien que le Mausolée Royal et son origine est encore plus légendaire. La tradition l'attribue à un souverain. L'usage de construire des tombes de ce genre s'est poursuivi à travers toute l'antiquité, et c'est aux Ve et VIe siècle après J.-C. que furent édifiés dans la région de Frenda, (département de Tiaret) les Djeddar, monuments construits sur plan carré avec un couronnement pyramidal. Les plus grands d'entre-eux renferment des couloirs et des chambres intérieures communiquant entre-elles. Au nombre d'une dizaine, ces édifices couronnent des sommets de collines. Ils sont attribués à des princes berbères peut-être de religion chrétienne dont les principautés s'étendaient vers l'Ouest.

parce qu'elle se nomme Césarée. En deça, les bourgs de Cartenna (Ténès) et de Arsenaria, le chateau de Quiza, le golfe Laturus et le fleuve Sardabale. Au-delà, le mausolée commun de la famille royale... ensuite Icosium ».

Mentionnons toutefois, que, dans sa description du littoral de l'Afrique du Nord, cet auteur reproduit, avec peu de nouveautés, un livre plus ancien que St. Gsell attribue à Varron, mort en 27 avant J.-C.

La thèse historique présentée le plus fréquemment est celle qui attribue la construction du tombeau à Juba II et à sa femme Cléopâtre Sélénée, fille de la célèbre Cléopâtre, reine d'Egypte et du triumvir Antoine.

Le roi Juba II nous est présenté comme un souverain amateur d'art et de culture. Il a peuplé sa capitale, Cherchell, d'œuvres d'art choisies en Grèce et importées de là-bas.

Il régna, par la volonté de l'empereur romain Auguste, sur la Maurétanie pendant une longue période, de 25 avant à 23 après J.-C. Si la note sur le « monument commun de la famille royale » remonte à Varron, la thèse attribuant le tombeau à Juba II ne serait plus soutenable. Dans le cas contraire, la construction du monument se situerait entre le début et la fin du règne de Juba II. Les historiens depuis le début du siècle ont des avis partagés. Les uns préfèrent l'attribuer à Juba II, les autres lui donnent une date bien antérieure à ce roi. Il en est un fort célèbre, M.P. Romanelli qui s'est totalement écarté de ces deux tendances ; pour lui, le « tombeau de la Chrétienne » est un mausolée tardif qui pourrait même appartenir au 5e ou 6e siècle après J.-C. Il voit notamment en lui une réminiscence du mausolée circulaire d'Hadrien à Rome.

Une récente publication de M. GABRIEL CAMPS vient de relancer le débat à propos de la datation du Mausolée. En effet, un crampon de bois remis par M. CHRISTOFLE à M.G. CAMPS en 1962 a donné une date trop récente :

Cif 305 : 1660 + 120 soit 270 après J.-C. Je ne sais de quelle partie du monument provient le crampon, écrit M.G. CAMPS, peut-être des constructions rectangulaires situées à l'Est du monument, dans le prolongement de l'entrée et dont l'une est certainement plus récente que le reste du monument, peut-être des parties éboulées qui entouraient la masse du mausolée.

Si on ne rejette pas simplement cette datation, on peut supposer que ce crampon a été placé au IIIe siècle après J.-C. au cours de trauvaux d'entretien. On sait combien est resté vivace, en effet, le culte des rois divinisés en Afrique ».



Fig. 9. — Boyau creusé dans le Mausolée par les « fouilleurs clandestins »

Depuis bien longtemps des voleurs y sont entrés. Les premières violations du monument datent sûrement de l'antiquité. Il y a même eu des « fouilles », excavations à partir de la galerie intérieure du monument, pour retrouver une prétendue « chambre secrète ». Des excavations en forme de boyaux de mine ont été faites dans le but certain de retrouver les trésors dont parle tant la légende (fig. 9). L'une de ces « fouilles », longue de 7 mètres, part du fond du caveau des lions et se dirige vers le milieu du tombeau. L'autre, entamée dans la partie Ouest, débute dans la galerie dont elle se détache à angle droit, et atteint près de 16 mètres de longueur. Ces « fouilles » dont les traces sont encore très visibles de nos jours, ont dû être très dangereuses car elles perçaient le monument pour en rechercher le noyau, à travers de gros blocs. Le seul mérite qu'elles peuvent avoir pour l'archéologue, c'est la mise en évidence de la structure interne du monument : le monument circulaire est constitué par un remplissage de grands blocs quadrangulaires et de petits matériaux à la différence du Médracen qui a un remplissage hétérogène provenant des éclats de la taille ou d'apports extérieurs. Ces visiteurs indiscrets ont laissé des objets qui ont pu être datés avec certitude : ce sont des monnaies du 4e et du 5e siècle et des fragments de céramique d'époque tardive.

7. - *Quand et par qui a été construit le Tombeau ?*

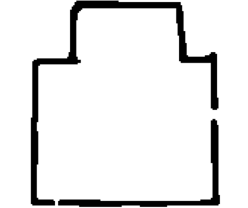
Les premières tentatives de pénétration dans le tombeau doivent donc se situer dans une époque assez reculée, en tout cas, elle doivent être antérieures à la conquête arabe. Puis l'accumulation des terres s'étant effectuée, les abords de la petite entrée située en contrebas du sol, se sont rapidement comblés. Ce monument maintenant visité pose un problème historique important : quand et par qui a-t-il été construit ? Cet édifice n'est pas daté. Il n'y a aucun indice chronologique à tirer des marques qui sont gravées sur les pierres de taille et qui indiquent seulement les ateliers des tailleurs de pierre où chacun avait un signe particulier. Certaines de ces marques de tâcherons ont une apparence de caractères latins, libyques ou grecs mais ne sont pas pour autant des lettres alphabétiques.

Le premier et le seul texte antique que nous possédions, qui parle de ce monument, est celui d'un auteur latin POMPONIUS MELA. Son livre intitulé « De situ Orbis » a été rédigé aux alentours des années 40 après Jésus-Christ, c'est-à-dire à l'époque où le royaume de Maurétanie a été annexé et transformé en province romaine. Dans le chapitre 6, folio 38, du livre I de POMPINIUS MELA, on peut lire les lignes suivantes :

« Iol (Cherchell), sur le bord de la mer, ville jadis inconnue et illustre maintenant pour avoir été la cité royale de Juba et

0 2 4 6 8 10
– Echelle –

PLAN



Plan du Mausolée.

en berceau et orientés Nord-Sud. Le second caveau, dénommé inexactement chambre centrale est orné de 3 niches sur chacune des parois Nord, Sud et Ouest. On se trouve au cœur du monument. Mais on y a absolument rien trouvé. Une impression de déception se dégage alors quand on pense à cette masse monumentale d'environ 80.000 m^3, à cette galerie, à ces caveaux, à ces couloirs. Toutes les portes ont été trouvées brisées par Berbrügger, probablement depuis l'Antiquité. Le visiteur est en queque sorte dérouté. D'où les problèmes qui ont été posés et les idées émises (voir plan ci-joint).

6. - *Le problème du caveau central.*

On a fait une entrée invisible. Est-ce pour dépister les voleurs ou pour obéir à des croyances et des usages séculaires ?

Il est probable que la galerie a été faite pour permettre le développement de processions rituelles célébrées lors des funérailles à l'instar des Egyptiens dans les pyramides.

M. CHRISTOFLE, ancien architecte en chef des Monuments Historiques, à l'époque coloniale, a procédé, au Mausolée Royal, à d'importants travaux de restauration de la façade extérieure qui ont mis le monument dans un magnifique état. Parallèlement à une œuvre de consolidation et de restauration, M. CHRISTOFLE avait poursuivi de nombreuses investigations à l'intérieur du monument. Une partie de ses résultats a été consignée dans ses rapports et dans son étude sur « le Tombeau de la Chrétienne ».

Beaucoup de problèmes ont été soulevés. On affirme que la chambre centrale est la chambre funéraire du Tombeau. Diverses objections ont été présentées à ce sujet, notamment l'exiguïté d'un réduit peu en rapport avec l'importance du monument, et la disparition de tout appareil funéraire (sarcophage ou autre), alors que les portes d'accès n'offrent qu'un étroit passage. Il faudrait supposer que les cendres (s'il y a eu incinération) du ou des défunts auraient été déposées dans les petites niches qui, au nombre de trois, décorent les parois de la chambre centrale. On pourrait y voir aussi la place de chandelles ou de lampes (fig. 8).

Une question a été souvent posée : le monument ne renfermerait-il pas, à la manière des monuments Egyptiens, une chambre secrète où l'on ne devait plus accéder une fois accomplie l'inhumation du personnage, à côté d'une chambre consacrée au culte funéraire et où l'on pouvait normalement pénétrer dans certaines circonstances ?

Cette question est posée depuis que l'intérieur du monument est connu.

Il y a encore beaucoup de gens qui accordent crédit à toutes sortes d'hypothèses romanesques et qui espèrent encore que le Tombeau réservera des surprises.

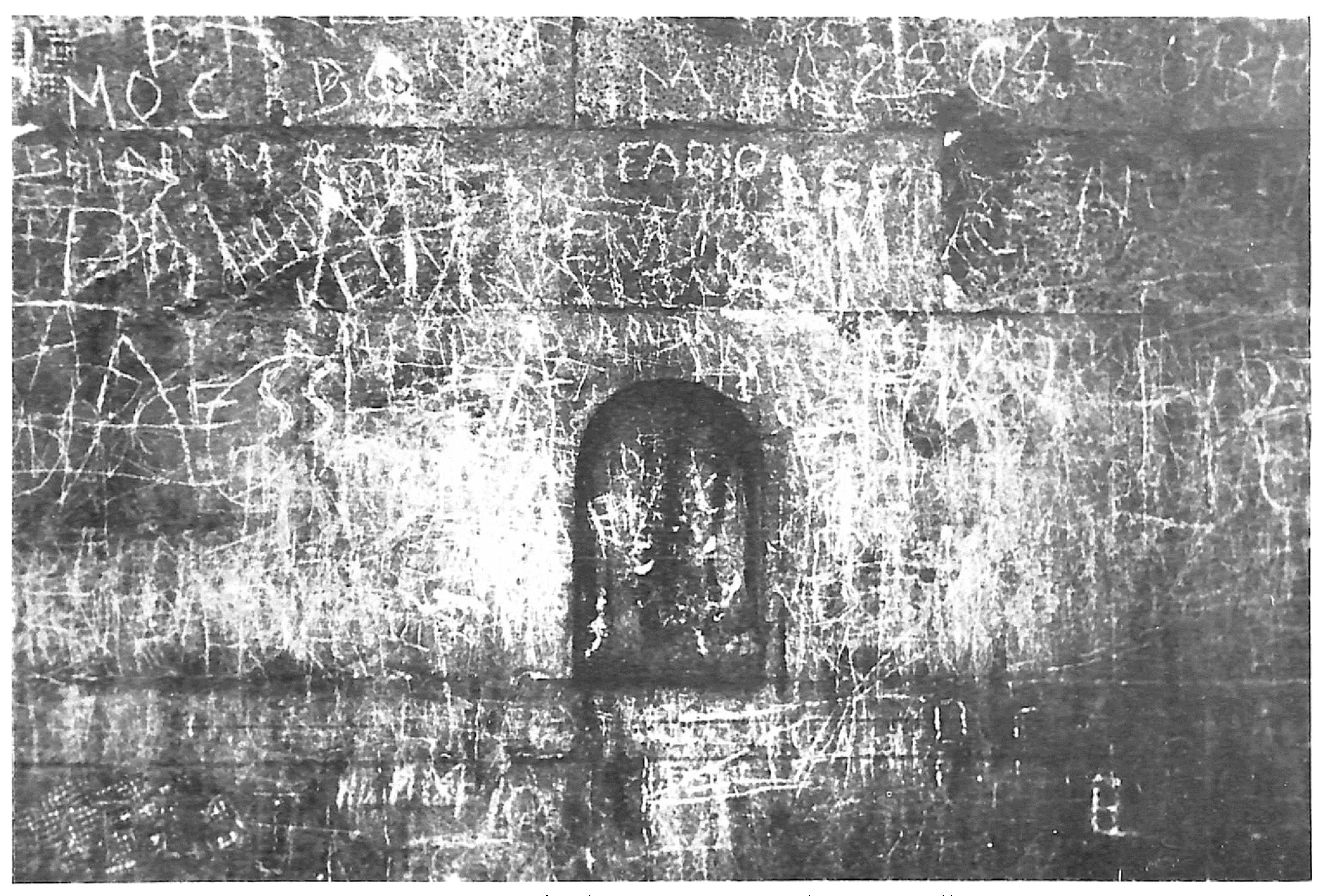


Fig. 8. — Niche creusée dans la paroi du caveau central. Noter les graffitis dus aux visiteurs « inconscients ».



Fig. 7. — Entrée au vestibule du caveau central



Fig. 6. — Niche creusée dans le mur du couloir.

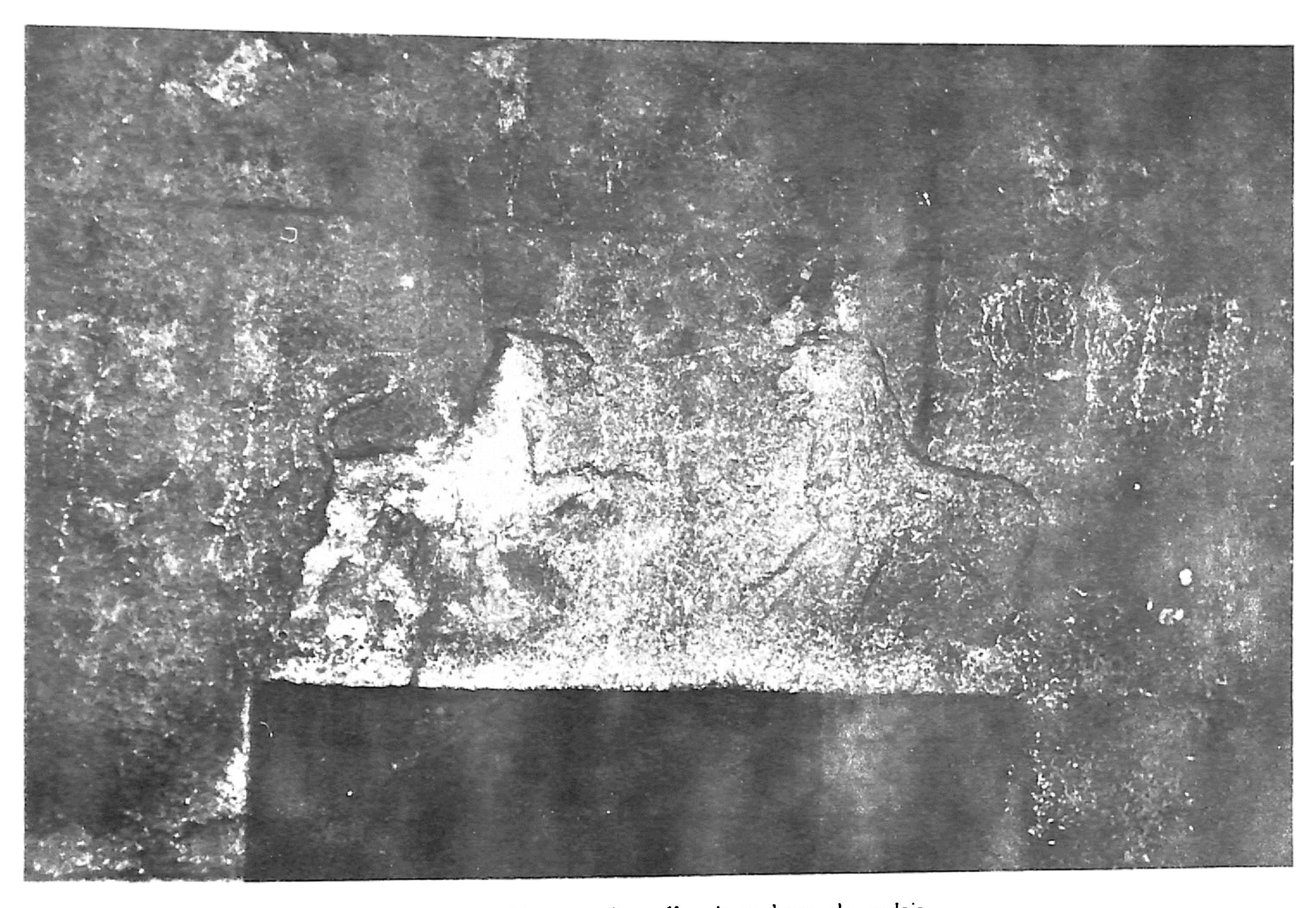


Fig. 5. — Lionne et lion affrontés au-dessus du couloir.

L'entrée tant recherchée de ce tombeau se trouvait donc dans le soubassement du monument, au-dessous de la fausse porte de l'Est. Basse et étroite, la porte mesure 1,10 mètre de hauteur. Elle était fermée par deux pierres de taille, l'une sur l'autre, dont les lits étaient placés à la même hauteur que ceux des assises voisines. On ne pouvait donc distinguer ces 2 blocs des autres, autrement que par la disposition des joints. Une fois la porte franchie, on se trouve en face d'une dalle-porte s'engageant dans une rainure, en haut et sur les côtés. A l'aide d'un levier on pouvait soulever ou rabaisser cette sorte de herse. Berbrügger a trouvé cette porte brisée comme toutes les autres d'ailleurs (fig. 4).

5. - *Description du déambulatoire.*

Le couloir d'accès très bas et où il faut se courber pour avancer, se trouve au-dessous du niveau du sol, fermé par une deuxième herse. En arrière du couloir s'ouvre un vestibule : c'est un caveau voûté en berceau, long de 5,33 mètres, large de 2,52 mètres, et haut de 3,20 mètres. Sur le mur de droite, un lion et une lionne sont sculptés en relief sur la pierre, au-dessus d'une porte d'un nouveau couloir (fig. 5).

Cette sculpture a donné son nom au vestibule des lions. Difficilement interprétables, le lion et la lionne affrontés sont les seules représentations décoratives du Tombeau : les anciens leur assignaient le rôle de gardien de sépultures. Ces images sont très fréquentes dans les monuments du Proche-Orient antique.

Aussitôt après le second couloir, le plafond bas fait place à une voûte élevée et les parois s'écartent : on arrive à la galerie circulaire à laquelle on accède par quelques marches (7 escaliers).

La galerie voûtée en plein cintre qui vient après cet escalier mesure 141 mètres de longueur, sur 2 mètres de largeur et 2,40 m de hauteur. Elle pouvait être éclairée par des lampes, placées de 3 m en 3 m dans les 51 niches creusées dans les parois latérales (fig. 6).

Cette galerie est établie sur le sol de la plate-forme carrée qui supporte tout le tombeau, alors que le vestibule est en contrebas. De forme curviligne, la galerie tourne de la droite à la gauche, décrivant un cercle presque complet et, partant de la porte Est passe successivement derrière les fausses porte du Nord, de l'Ouest et Sud. Après ce dernier point, la galerie s'infléchit vers le centre du monument et arrive à une porte orientée elle aussi vers l'Est. Elle est fermée par une herse qui donne accès à un vestibule de 4,04 m de long sur 1,58 m de large, et 2,73 m de haut, d'où l'on pénètre, par un couloir surbaissé et une dernière porte munie également d'une herse, à un caveau de 4,04 de long, 3,06 m de large et 3,43 m de haut (fig. 7). Les deux caveaux sont voûtés



Fig. 4. — Dalle coulissante en grès trouvée brisée.

Il y a même une recette de sorcellerie pour s'assurer une fortune magnifique. On raconte aussi qu'un berger du voisinage avait remarqué qu'une de ses vaches disparaissait toutes les nuits. Le lendemain matin, il la retrouvait pourtant au milieu du troupeau. Un soir il résolut de la suivre : il la vit alors s'enfoncer par une ouverture qui se referma aussitôt. Le jour suivant, s'accrochant à la queue de la bête, il put entrer avec elle. A l'aube il sortit de la même façon mais les poches remplies d'or ; il devint l'homme le plus riche de la région. Ces légendes ont tellement impressionné les maîtres de la Régence d'Alger, que le pacha Salah Raïs, en 1555, a tenté de démolir le K'bour pour en enlever le trésor. Il l'a même fait battre au canon, sans autre résultat qu'abîmer la fausse porte de l'Est.

Un autre Bey, Baba Mohamed, au XVIIIe siècle, fit procéder à d'autres « fouilles » pour y découvrir des trésors. Les ouvriers qu'il utilisait en ont été « chassés par des moustiques devenus gros comme des oiseaux ». D'autres sources rapportent que les espoirs du Bey furent déçu ; la place de l'or escompté, ils ne rapportèrent que les crampons en plomb qui scellaient les pierres entres elles.

Un romancier, Pierre Benoit, dans « l'Atlantide », évoque lui aussi le Tombeau de la Chrétienne :

« Il y a, au Sud de Cherchell, la ville de Césarée, à l'Ouest du petit fleuve Mazafran, sur une colline qui émerge, au matin des brumes roses de la Mitidja, une mystérieuse pyramide de pierre. Les gens du pays l'appellent le Tombeau de la Chrétienne. C'est là que fut déposé le corps de l'aïeul d'Antinéa, cette Cléopâtre Sélénée, fille de Marc Antoine et de Cléopâtre. Placé sur le chemin des invasions, cet hypogée a gardé ses trésors. Nul n'a jamais su découvrir la chambre où repose le corps splendide dans son cercueil de verre ».

4. - *Les fouilles archéologiques.*

Les premières fouilles régulières furent effectuées par Adrien Berbrügger était alors « Inspecteur général des Monuments Historiques et des Musées archéologiques de l'Algérie ». Pour trouver l'hypogée, Berbrügger décida d'utiliser une sonde semblable à celles qui servent à forer les puits artésiens. Au bout de 4 mois d'efforts la sonde tomba brusquement de 2,65 mètres. Elle avait traversé un espace vide.

On perça alors un tunnel sous la fausse porte du Sud afin de rejoindre ce vide, et c'est par là qu'à l'époque moderne on pénétra, pour la première fois, dans une vaste galerie, très bien conservée. De là, les chercheurs ont abouti d'un côté à l'entrée véritable, percée sous la fausse porte de l'Est. De l'autre côté, on aboutit à deux chambres centrales. Mais les portes montées sur glissière étaient brisées et les chambres vides.

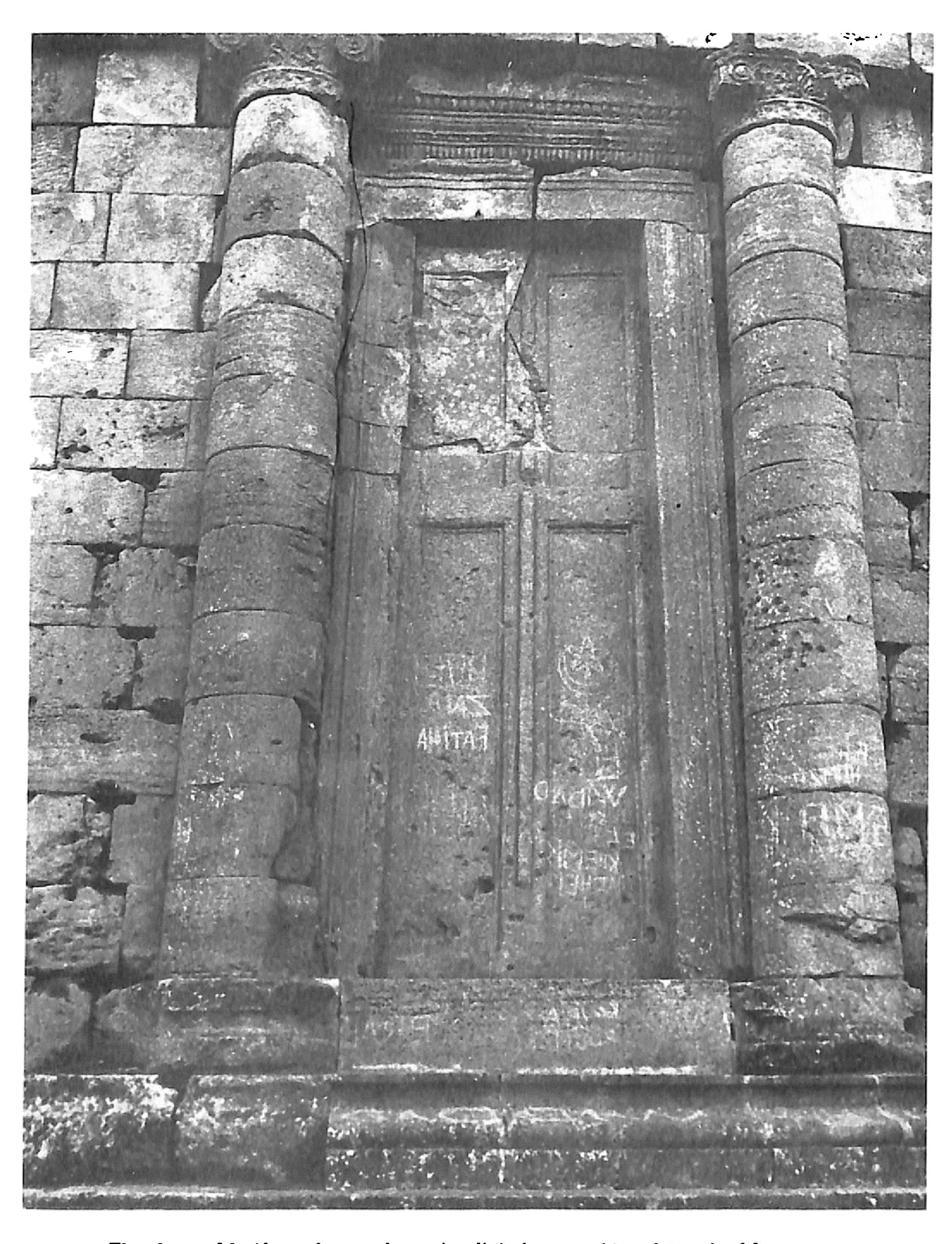


Fig. 3. — Motif en forme de croix d'où le nom légendaire du Monument

Il n'y a rien dans ce tombeau qui rappelle l'époque chrétienne, et si la tradition veut que son nom soit Kbour-er-Roumia, l'explication se trouve probablement dans l'histoire du mot arabe (roumia » ; « Roum » voulait dire « romain » ou « byzantin » chez les Arabes, et d'autre part dans le motif de la croix. M. RAHAL ABOUBEKR a donné l'indication suivante à ce sujet : « en littérature arabe, le mot رومية avait deux acceptions, selon qu'il était employé en Orient ou en Andalousie. Dans le premier cas, il signifiait byzantin ou grec, dans le deuxième, chrétien ».

3. - *Ce qui a été écrit à son sujet.*

De tous temps, les hommes ont été curieux de savoir quelle était la véritable destination de ce monument. Renfermait-il des richesses qui ont été pillées depuis longtemps, ou bien garde-t-il encore jalousement son secret ?

Le Mausolée Royal de Maurétanie reste un gigantesque mystère. Evoquant cette énigme archéologique dans son ouvrage : « l'Algérie, terre d'Art et d'Histoire » H. BERQUE a écrit :

« Le Kbour-er-Roumia n'a pas épuisé sa vocation historico-légendaire. Hanté de fantômes, riche d'énigmes, et d'une silhouette trappue sous la lune berbère, il retentit de soufles romantiques. Par les nuits d'hivers, la galerie gémit et chuchote. Les pierres vibrent. Les lumières chancellent. Quel décor pour une intrigue de Walter Scott... quel thème pour des anticipations à la Wells, ou des préhistoires à la Rosny. Le Tombeau de la Chrétienne nous réserve encore de passionnants coups de théâtre... ».

Depuis bien longtemps, des recherches d'abord officieuses puis officielles, ont été effectuées. Plusieurs livres ont paru ayant pour sujet le Mausolée Royal. Œuvres d'imagination ou travaux scientifiques, ils s'efforcent tous de percer le secret du Tombeau. Le géographe arabe du Moyen-âge, El-Bekri, en parle dans sa description de l'Afrique Septentrionale. Marmol, un officier de l'armée de Charles-Quint, qui fut en captivité à Tunis pendant huit ans, et visita l'Afrique du Nord, publia en 1573 à Grenade et en 1579 à Malaga, une « Description générale de l'Africa ». Au chapitre 34 du livre cinquième, il évoque le Mausolée Royal où, dit-il, est enterrée la fille du Comte Julien. Cette fille d'une rare beauté avait été séduite par le roi des Wisigoths. Pour se venger de cette insulte, le comte Julien aurait livré l'Espagne aux Arabes.

57 ans avant Marmol, un roi de Ténès écrivait à un général « Castillan » une lettre où il était question du « Kober Roumia ».

En 1738, Thomas Shaw, docteur en théologie, qui avait été pendant 12 ans chapelain de la factorerie anglaise d'Alger, situe le tombeau à 4 lieues au Nord-Est de Koléa.



Fig. 2. — L'édifice repose sur des gradins en pierres de tailles.

2. - L'aspect extérieur du monument.

Une fois au sommet de la colline, se dresse alors l'imposant monument sur une plate-forme artificiellement aménagée. Que peut-on dire alors sur cette construction qui a fait rêver et inspirer plus d'un écrivain ? Les seuls éléments précis en possession des chercheurs et des archéologues sont les proportions géométriques du Mausolée. Il s'agit en effet d'un énorme cylindre à facettes, coiffé d'un cône à gradins. Il est orné, sur son pourtour, de 60 colonnes engagées, surmontées de chapiteaux ioniques, supportant une corniche. Certains chapiteaux à volutes, de type ionique, peuvent être aperçus, gisant par terre auprès du monument.

L'ensemble de la construction est comme posé sur un socle carré de 64 mètres environ de côté. Ce socle dallé est lui-même posé sur un « béton » de petites pierres concassées et liées par une sorte de mortier qui n'est autre que la terre argileuse rougeâtre de la région. L'édifice lui-même repose sur une série de gradins en pierres de taille (fig. 2).

Les dimensions et les chiffres qui suivent font ressortir le caractère colossal de cette construction antique. Le Mausolée mesure 185,50 mètres de circonférence, 60,90 mètres de diamètre et 32,40 mètres de hauteur. La partie en forme de cône est formée de 33 gradins de 0,58 mètres de hauteur chacun. Elle se termine au sommet par une plate-forme. Ces chiffres sont encore plus évocateurs quand on songe que le volume du tombeau dépasse 80.000 mètres cubes.

Devant l'entrée du monument sont visibles encore des traces d'un avant-corps d'une construction longue de 16 mètres et large de 6 mètres, qui doit constituer probablement la base d'un temple ou d'un autel monumental.

Lorsqu'on le regarde de loin, le mausolée royal ressemble à une énorme ruche ou à une meule de foin. Mais dès que l'on se rapproche, on se rend compte alors de son imposante présence. Selon la saison et selon l'heure de la journée, il prend tour à tour une belle patine dorée ou gris pâle et même parfois bleuâtre dans la brume.

Il est caractérisé surtout par quatre grands panneaux en pierre, en forme de trapèze : ce sont quatre fausses portes de 6,90 mètres de hauteur, encadrées dans un chambranle et dont les moulures saillantes font apparaître une sorte de croix. Ces fausses portes sont placées aux points cardinaux.

Le Tombeau a été peut-être considéré comme un monument chrétien à cause de ce motif décoratif en forme de croix. Il n'en est rien. On a également pensé que ce dernier motif mal interprété avait été à l'origine de son nom légendaire de « Tombeau de la chrétienne » (fig. 3).

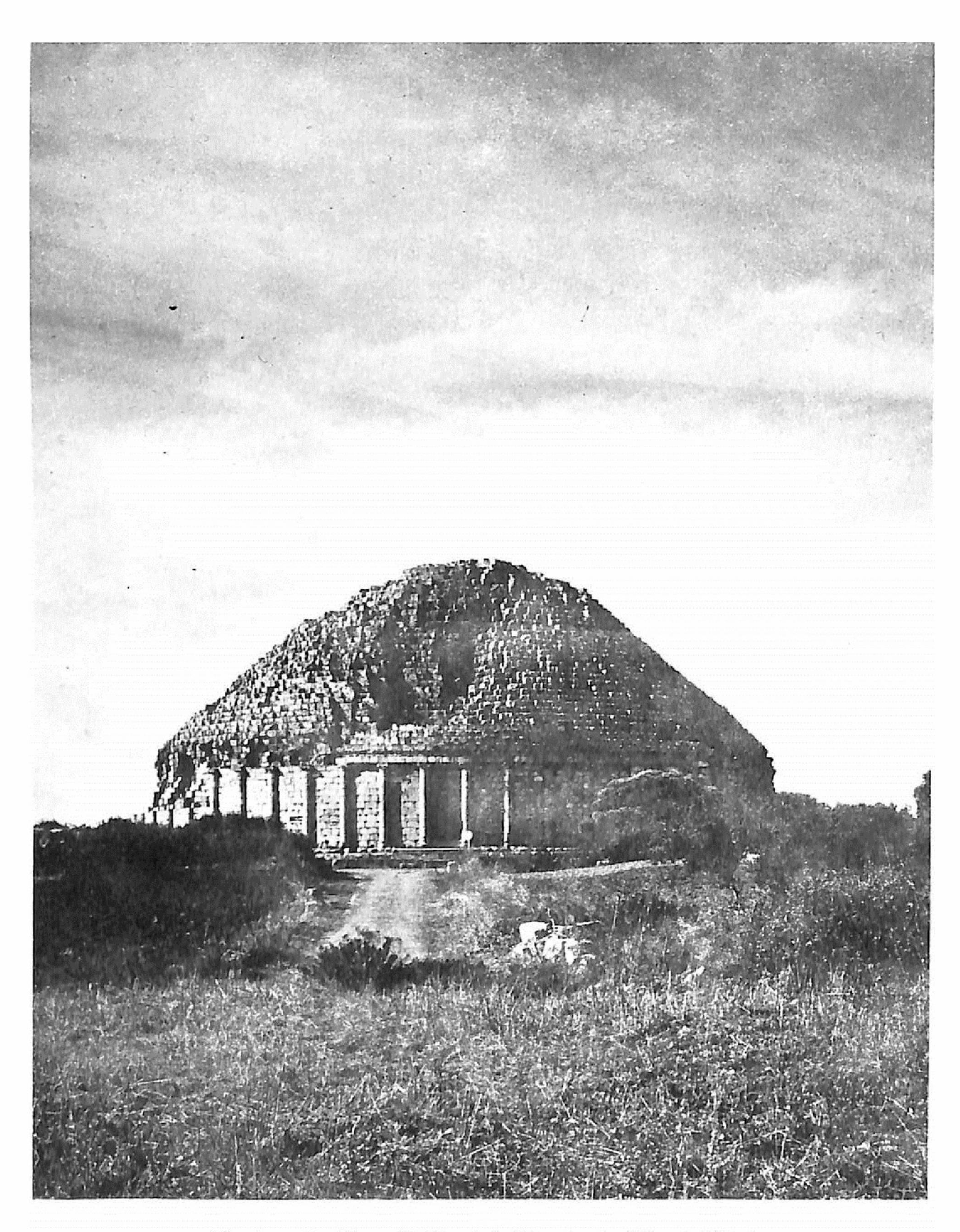


Fig. 1. — Le Mausolée Royal de Maurétanie. (Vue de l'Est).

PATRIMOINE ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE

LE MAUSOLEE ROYAL DE MAURETANIE (1)

1. - *Situation.*

Il peut paraître assez paradoxal de revenir sur la description d'un monument qui semble connu du public. Pourtant, nombreux sont les visiteurs qui se posent encore des questions sur ce fameux mausolée, appelé à tort « Tombeau de la chrétienne », ou encore récemment dénommé « Tombeau de cléopâtre Séléné épouse de Juba II ». De nombreux travaux effectués à proximité et à l'intérieur du monument n'ont cependant apporté aucune réponse nouvelle aux questions que se posent archéologues et historiens, depuis de nombreuses années.

Entre Alger et Cherchell, sur une des côtes du Sahel, s'élève le Mausolée Royal de Maurétanie, appelé traditionnellement « Kbour-er-Roumia ». On peut y arriver en suivant la route qui, d'Alger conduit à Tipasa et Cherchell. Cette route court au pied des collines du Sahel occidental d'Alger toutes couvertes d'un manteau de vignes, de primeurs et de maquis vers le sommet. Pendant une cinquantaine de kilomètres, le rivage est dominé de près par cette longue croupe montagneuse qui sépare la mer, au Nord, de la plaine de la Mitidja, au Sud.

Au point culminant du Sahel, à 261 mètres au-dessus de la mer, se dresse le colossal monument visible aussi des hauteurs de Bouzaréah qui dominent Alger, visible surtout de la mer où marins et pêcheurs l'utilisent comme point de repère (fig. 1).

Pour se rendre au Mausolée Royal de Maurétanie, il faut quitter la route nationale, entre Bou-Ismaïl et Tipasa, au niveau de la ferme dite du « Rocher Plat », et grimper au sommet du bourrelet côtier, comme l'indique le panneau de signalisation. On peut également y aller en prenant la route de Koléa à Hadjout, au niveau du village de Sidi Rached.

(1) Nouvelle appellation appliquée au Tombeau dit de la Chrétienne autrement appelé Tombeau de Cléopâtre Séléné épouse de Juba II.

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

MINISTERE DE L'INFORMATION ET DE LA CULTURE

LE MAUSOLÉE ROYAL DE MAURÉTANIE

Direction des Musées de l'Archéologie et des Monuments et sites Historiques

ALGER

1979



Mounir BOUCHENAKI

Traduction en Arabe par

Abdelhamid HADJIAT

Achevé d'imprimer sur les presses
de la Société Nationale d'Edition et de Diffusion
3, Bd. Zirout Youcef - ALGER
(Imprimerie ZABANA)

Ministère de l'Information et de la Culture

LE MAUSOLÉE ROYAL DE MAURÉTANIE



Direction des Beaux-Arts
Monuments et Sites